اتجاهات البحث الأسلوبي 1

1- الأسلوبيــة التعبيريـّــة

أسس شارل بالي الأسلوبيــة سنة 1902 وكان موضوعها الخطاب الألسني عامة ، ولم يقسم الخطاب إلى خطاب أدبي وخطاب نفعي إنما صنفه إلى نوعين هما : « ما هو حامل لذاته غير مشحون البتة وما هو حامل للعواطف والخلجات وكل الانفعالات ، ذلك أن المتكلم –حسب بالي– قد يضفي على معطيات الفكر ثوبا موضوعيا عقليا مطابقا جَهد المستطاع للواقع ، ولكنه في أغلب الأحيان يضيف إليها – بكثافات متنوعة– عناصر عاطفية قد تكشف صورة الأنا في صفائها الكامل ، وقد تغيرها ظروف اجتماعية مردها حضور أشخاص آخرين أو استحضار المتكلم لهم ».

فأسلوبية بالي تهتم باللغة المشحونة بالعواطف والانفعالات التي تكشف صورة الأنا منفردة أو في علاقاتها المختلفة ، لذلك فالأسلوبية عنده تعنى « بالبحث عن القيمة التأثيرية لعناصر اللغة المنظمة والفاعلية المتبادلة بين العناصر التعبيرية التي تتلاقى لتشكيل نظام الوسائل اللغوية المعبرة ، وتدرس الأسلوبية عند بالي هذه العناصر من خلال محتواها التعبيري والتأثيري ».

ألف شارل بالي مجموعة من الكتب أكد فيها على دراسة اللغة في محتواها التعبيري التأثيــري أهمها : " الأسلوبيــة الفرنسيــة " و " الوجيــز في الأسلوبيــة " و" اللغــة والحيـاة" و" اللسانيات العامة واللسانيات الفرنسية" ، وقد حذا حذوه العديد من الأسلوبيين « فجول ماروزو رفض أن يحصر الأسلوبية في اللغة المحكية فقط و مارسيل كروسو دعا إلى دراسة ما تشتمـل عليه الأساليب من جوانب وجدانيـة ، أما روبرت سايس فقد رفض عزل اللغـة

عن سياقها ، في حين أن ستيفان أولمان أدخل في التحليل الأسلوبي مفاهيم تعدد المعاني والانحراف والإيحاء والاختيار وأسباب الاختيار بالنسبة للكاتب ».

تأتي الأسلوبية التعبيرية لتتبع بصمات الشحن العاطفي في الخطاب عامة ، وهو ما سماه جورج مونان بـ " التشويه " الذي يصيب الكلام ، والذي يحاول المتكلم أن يصيب به سامعه في ضرب من العدوى ، فهي تعنى بالجانب العاطفي في الظاهرة اللغوية وتقف على استقصاء الكثافة الشعورية التي يشحن بها المتكلم خطابه .

انطلق شارل بالي في تأسيسه لملامح هذا الاتجاه من دراسة البلاغة القديمة حيث اهتم بالنبر والصور والأساليب ، فلم يتوقف عند قواعدها الجامدة بل تعداها إلى الاهتمام بالقيم التعبيرية والانطباعية التي يختزلها الأسلوب على شكل شحنات وموجات عاطفية ، إذ يهتم بالمضمون العاطفي الذي يُعبَّر عنه بالتراكيب اللغوية .

لم تغفل الدراسات العربية دور شارل بالي في التأسيس للأسلوبية التعبيرية ، فقد عرض صلاح فضل آراءه وطريقته في تحليل الوقائع الأسلوبية ، مبينا مهمة الأسلوب في تحديد أنماط التعبير من خلال دراسة الوسائل والإجراءات التي تؤدي إلى إنتاج اللغة ، وأثر الظواهر الأسلوبية في المتلقي ، والانفعال المصاحب للتعبير...، وقد حاول صلاح فضل تحديد خصائص الأسلوبية التعبيرية متمثلة في :

1-البحث عن مكامن القوة التعبيرية في اللغة على جميع مستوياتها .

2-تحليل علاقاتها بالفكر وبالشخصية الجماعية بدراسة أهم العناصر التعبيرية .

كما حاول حمادي صمود تحديد تلك الخصائص ، مبينا الاعتبارات التي أسس عليها شارل بالي أسلوبيته ، إذ :

1- جعل اللغة هي مادة التحليل الأسلوبي ، وليس اللغة الأدبية فقط .

2- يرى بأن اللغة حدث اجتماعي صرف ، يتحقق بصفة كاملة وواضحة في اللغة اليومية الدائرة في مخاطبات الناس ومعاملاتهم .

3- يعتبر بالي كل فعل لغوي فعلا مركبا تمتزج فيه متطلبات العقل بدواعي العاطفة ، بل إن الشحنة العاطفية أبين وأظهر في الفعل اللغوي.

استطاعت الأسلوبية التعبيرية أن تكون ذات أثر في مختلف الدراسات اللغوية خاصة ما تعلق منها بالمعجم والتراكيب والدلالات ، كما استطاعت ربط اللغة بالنواحي الاجتماعية والنفسية والبحث في علاقة التفكير بالتعبير بإبراز مختلف الشحنات العاطفية والانفعالية ، لكنها مع اهتمامها بالجانب الوجداني أغفلت الأبنية النصية وعلاقاتها ، وهو ما أدى إلى ظهور اتجاه أسلوبي جديد يعنى بهذا الجانب وهو الأسلوبية البنيوية.

2- الأسلوبية البنيويـّـة

تحلل الأسلوبية البنيوية الأسلوب من خلال التركيب اللغوي للخطاب، فتحدد العلاقات التركيبية للعناصر اللغوية في تتابعها، وذلك بالإشارة إلى الفروق التي تتولد في سياق الوقائع الأسلوبية ووظائفها في الخطاب الأدبي.

إن مهمة الأسلوبية البنيوية اكتشاف القوانين التي تنظم الظواهر الأساسية في الخطاب الأدبي ، وترى أن النص يشكل بنية قائمة بذاتها ذات علاقات داخلية بين عناصره لها قوانين خاصة بها، ويمثل هذا الاتجاه من الدراسات الأسلوبية كل من رومان جاكبسون وميشال ريفاتير.

يقـول جاكبسون: « إذا أردنا أن نصف في إيجـاز الفكــر الذي يقود العلــم الحديث في تجلياتــه المختلفـة فلن نجد تعبيرا أدق من كلمة بنيويـة ، إذ كل مجموعة من الظواهر التي يعالجها العلم الحديث تعالج لا باعتبارها تجميعا ميكانيكيا بل كوحدة بنيوية كنسق ،

والمهمة الأساسية هي اكتشاف قوانين النسق الجوهرية سكونية كانت أو دينامية ، فليس المؤثر الخارجي هو ما يشغل العلم الحديث بل الشروط الداخلية للتطور، وليس التكوين في المظهر الميكانيكي بل الوظيفة » ، فجاكبسون يدعو إلى دراسة الخطاب دراسة نسقية واكتشاف القوانين الداخلية المتحكمة فيه وفي وظائفه .

يرى جاكبسون أن اللغة في الخطاب تؤدي ست وظائف هي : الوظيفة الانفعالية والمرجعية والشعرية والانتباهية والانعكاسية والإدراكية ، وهي تجسد عملية الإيصال في دوائرها المختلفة ، لكنه يركز على الوظيفة الشعرية لكونها أبرز وظائف الفن اللغوي الأدبي ، وتتحقق من خلال مبدأي الاختيار والتركيب.

إن عمليتي الاختيار والتركيب هما عمليتان متواليتان في الزمن ومتطابقتان في الوظيفة ، وهما اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية من الرصيد المعجمي للغة ، ثم تركيبه لها تركيبا تقتضي بعضه قوانين النحو، وتسمح ببعضه سبل التصرف في الاستعمال، ويتحدد الأسلوب بأنه التوافق بين العمليتين؛ أي تطابق جدول الاختيار على جدول التوزيع، ما يفرز انسجاما بين العلاقات الاستبدالية.

كما تتحقق الوظيفة الشعرية بحدوث "الانحراف" أو "الانزياح" أي الخروج من المألوف في الاستعمال اللغوي ، فهي لا تقوم بالإبلاغ وإنما جعل الخطاب الأدبي يتميز بأبعاد فنية جمالية.

فالأسلوبية البنيوية تسعى إلى تحديد النص من خلال العلاقات الموجودة فيه باعتباره عملا لغويا غير محدود بوظيفته الأولية التبليغية التي هي التواصل بين الناس، فاللغة في النص الأدبي لغة شعرية غنية بعلاقاتها الدلالية وأبعادها الفنية ، وهو ما ذهب إليه تودوروف الذي يقول : « إن العمل الأدبي لم يعد كأي منطوق لغوي آخر مصنوع من الكلمات ، بل إنه مصنوع من جمل ، وهذه الجمل خاضعة لمستويات متعددة من الكلام» ، فهو يريد أن يبين أن خصوصية العمل الأدبي تكمن فيما يقوم عليه من

علاقات متعددة غير مألوفـة ، فالأسلوب عنده يتحدد بالانزياح الذي يرى أنه ما كان ليوجد لو أن اللغة الأدبية كانت تطبيقا كليا للأشكال النحوية الأولى.

بدأت معالم الأسلوبية البنيوية مع رومان جاكبسون الذي انطلق في جهوده من مقولات الشكلانيين الروس ، إلا أن ميشال ريفاتير يعد زعيمها، فقد أخذت معه مسارا مهما في تناول الأسلوب في النص الأدبي ، وقد أفرد كتابا خاصا لهذا الاتجاه سماه " محاولات في الأسلوبية البنيويـة " صدر سنة 1971.

حدد ريفاتير موضوع الدراسة الأسلوبية البنيوية وهو النص الأدبي ، وهو ما أغفلته الأسلوبية التعبيريـة ، كما يرى أن مختلف المعارف مجحفة في تحليلـه ، وهي علوم البلاغة واللسانيات والنقـد الأدبي والشعريـة والشرح الأدبي التقليدي ، لأن أغلبـها « شمولي في أحكامـه وللنص الأدبي خصوصياته الفردية ، بينما الأسلوبية –حسب ريفاتير– لا تتولد من شمول ولا تقبل تعميقا ، بل إن الشمول والتعميم يطمسان معالمها ولا يتركان منها أثرا، فالمحلل الأسلوبي ينطـلق في البحث من النص الذي هو صرح مكتمل البناء، ولا يهدف إلى تعميم ما يتوصل إليه من نتائج ، فهو يسخر جهوده كلها لتتبع سمة الفردية في النص الأدبي ، وهذه السمة الفردية هي التي تسمى أسلوبا ... وينتهي ريفاتير إلى أن الأسلوب هو النص نفسـه ».

وذهب إلى أن الأسلوب لا يتحدد إلا عن طريق المتلقي ، إذ يعرفه بأنه إبراز عناصر الكلام وحمل المتلقي على الانتباه لها، بحيث إذا هو غفل عنها شوَّه النص، وإذا حللها وجد لها دلالات متميزة خاصة.

ويبين ريفاتير دور القارئ في الدراسة الأسلوبية التي تمر بمرحلتين:

1- مرحلة الوصف أو اكتشاف الظواهر وتعيينها، وتسمح للقارئ بادراك وجوه الاختلاف بين النص والبنية النموذج الموجودة في حسه اللغوي ، فيكتشف التجاوزات والمجازات وصنوف الصياغـة .

2- مرحلة التأويـل ، وهي تابعة للمرحلـة الأولى وفيها يتمكـن القارئ من الغوص في النص وفكه على نحو تتـرابط فيه الأمور وتتداعى ويفعـل بعضها في بعض.

ساهمت الأسلوبيـة البنيويـة في رسم معالم الشعريـة ، فهي تقـوم عند جان كوهيـن Jean Cohen في كتابـه " بنيـة اللغـة الشعريـة " على مبدأي الاختيـار والتركيب وبهما تتم عمليات التحويـل الدلالـي التي تطـرأ على عناصـر الكلام ، غير أن أسلوبيـة ريفاتيـر تركـز على استجابة القارئ في تحديد سمات الأسلوب بينما تعول شعرية كوهن على الباحث اللغوي في تحديد تلك السمات والانزياحات .